كلمة تحية وترحيب

لأبي الحسن علي الحسني الندوي
أمين ندوة العلماء العام

النَّدوة العالمية للأدب الاسلامي

المنعقدة في ١٢ - ١٤ من جمادى الآخرة ١٤٠١هـ
١٧ - ١٩ من أبريل ١٩٨١م

مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين محمد و آله و صحبه أجمعين و من تبعهم باحسان إلى يوم الدين ، أما بعد !

حضرات الأساتذة الكبار ، و علماء اللغة العربية و الآداب ، و المشتغلين بالتربية والتعليم ، والتأليف والبحث والتحقيق فى مختلف أرجاء العالمين الاسلامى والعربى أحييكم بتحية الاسلام ، وبتحية القرآن ، الذى جمعنا على صعيد حب اللغة العربية . و دراستها ، و وصل النهار بالليل ، والشباب بالشيب فى خدمتها ، والغيرة عليها ، و إيثارها على لغات الأمهات و الآباء ، والبلاد والأوطان ، فلو لا القرآن الذى نزل بهذه اللغة ، و لو لا الرسول الذى نطق بها ، و لو لا المكتبة الاسلامية العربية التى هى من أغنى مكتبات العالم ، والتى أسهم فى تكوينها وتوسيعها وتجميلها علماء العرب و العجم ، لما تسنى لبلد عجمى يعانى مشكلة اللغات ، و يخوض معركة صراع الثقافات و الحضارات ، و لا يرتبط باللغة العربية ارتباطاً عنصرياً ، و لا مناخياً ، و لا تاريخياً ، و لا اقتصادياً و سياسياً ، أن يعقد ندوة عالمية فى الأدب العربى ، ويدعو إليها صفوة الأدباء والباحثين فى العالم العربى ، ولا يشعر فى ذلك بمعنى من معانى « التطفل » و حب الفضول ، و لا بشىء من الاقتحام و المغامرة ، و تخطى الحدود و الآداب ، فيلجأ إلى اعتذار و تعليل و تبرير .

إن هذه الندوة العالمية للادب الاسلامى تعقد فى بلاد لم تكن اللغة العربية فيها فى فترة من فترات التاريخ لغة النطق و التفاهم ، و لغة الديوان و الحكومات ، ولغة الرسائل و المكاتبات ، وإن كان ذلك محسوباً على هؤلاء المسلمين الذين كانوا

و لا يزالون يقرأون القرآن باللغة العربية ، و هى لغة صلواتهم وعباداتهم ، لكن سادتنا العرب ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ لا يتخلون عن التبعة ، فلو وصل المد اللغوى و الثقافى ، و الحضارى الذى احتضن مصر والشام و العراق ، إلى أسوار هذه القارة الهنـــدية و توغل فيها ، كما توغل فى ربوع الشرق العربى ، و ربطها الخيط النورانى الذى انبثق من الجزيرة العربية فى فجر الفتح الاسلامى ، لكان لهذه البلاد شأن غير هذا الشأن ، و لما احتجتم إلى وسيط و ترجمان .

و لكن بالرغم من أن اللغـــة العربية لم تكن فى يوم من الأيام لغة النطق و التفاهم على مستوى الشعب و الجمهور ، صلة هذه القارة باللغة العربية و حركة التأليف و التدوين عميقـة و قديمة ، و قد قدر الله أن تظل هذه البلاد متمسكة عبر القرون و الأجيال بعلوم الكتاب و السنة مسايرة لركب التأليف ، و الانتاج العلمى السيار ، حين ساق إليها فى طليعة الدعاة و الغزاة ، و فى مقدمـــة الكتيبة المؤمنة المغامرة فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، المحدث الكبير الربيع بن صبيح السعدى الذى يقول عنـــه الجلبى فى « كشف الظنون » هو أول من صنف فى الاسلام ، أو كان يلى أول المصنفين فى الاسلام كما قال بعضهم ، وكان قد خرج مع عبد الملك بن شهاب المسمعى من مطوعة أهل البصرة ، فمات بأرض الهند فى سنة ستين ومئة ، وكان فى موته شهيداً خارجاً فى سبيل الله ، حياة للعلم ، وبعث للهمم ، و حفز للعزائم ، و تأمين لمستقبل هذه البلاد العلمى و التأليفى .

و لم تكن عناية هذه البلاد و أبنائها بعلوم الكتاب و السنة ، التى توفرت الدواعى القوية ، من إيمان و عقيدة ، و حب و عاطفة ، و حاجة و ضرورة ، بل تخطت إلى اللغة العربية و آدابها ، و تاريخ هذه البلاد فى خدمة اللغـة العربية و العناية بها ، و الاتصال بأئمة اللغة و أقطابها ، و احتضانهم و إيوائهم ، قديم ، فكان الامام الكبير رضى الدين أبو الفضائل الشيخ حسن بن محمد الصغانى (م ٦٥٠هـ) من رواد وضع المعاجم الكبيرة ، و دواوين اللغة ، من مواليد هـــذه البلاد ،

قد ترعرع و بلغ أشده ، واستكمل دراسته بمدينة لاهور ، وكان دائم التردد إلى مسقط رأسه ، و بلاد نيطت بها تمائمه ، و قد سارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماء الزمان ، قال السيوطى :

« إنه كان حامل لواء اللغة » وقال الذهبى : « إن إليه المنتهى فى اللغة » و قال الدمياطى : « إنه كان إماماً فى اللغة و الفقه و الحديث » و من مصنفاته « العباب الزاخر » فى اللغة فى عشرين مجلداً ، ومجمع البحرين فى اللغة ، والنوادر فى اللغة و التراكيب ، وكتب أخرى فى أسماء الحيوانات ، عدا مؤلفاته فى النحو .

و قد ظلت عناية علماء الهند باللغة العربية و آدابها مستمرة على مر العصور و الأجيال ، و لم تكن هذه العناية تقليـدية ـ سائرة على خط واحد من وضع المعاجم الكبيرة و تلخيصهـا ، بل كانت لهم فتوح و ابتكارات ، و زيادات تكاد تكون فريدة فى المكتبة العربية العالمية الواسعة ، فقد عنى العلامة محمد طاهر الفتنى (م ٩٨٦هـ) بشرح غريب الحـــديث ، فألف كتابه العظيم « مجمع بحار الأنوار فى غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » فى أربع مجلدات كبار ، يقول العلامة السيد عـــبد الحى الحسنى فى كتابه « نزهة الخواطر » : « جمع فيه المؤلف كل غريب الحديث و ما ألف فيه ، فجاء كشرح الصحاح الستة ، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر فى الوجود ، و له منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم (انتهى) » و مؤلفات علماء الاسلام كثيرة فى موضوع غريب الحـــديث ، كما يعرف أهل هذه الصناعة ، و لكن الذى مارس تدريس الحديث الشريف ، وكان من المتبصرين الحاذقين لهذا العلم ، و الذين يواجهون المشكلات فى تدريس هـــذا الفن ، و شرح الحديث عملياً ، يعرفون ميزة هذا الكتاب ، وعلو كعب المؤلف و رسوخ قدمه فى فهم الحديث و سعة نظره فيه .

و يعرف أهل البصر ، و المشتغلون بالتـــدريس و التأليف أن موضوع المصطلحات العلمية ، و شرحها وتحديد معانيها ، و الوصول فيها إلى اللباب وفصل

الخطاب من أدق العلوم ، والمؤلف فى هذا الموضوع من أعظم المؤلفين مسؤلية وتحرجاً فان المصطلحات كالخارطة للسفن والمراكب والطائرات ، فان أدق خطأ فى خطوطها التى تضبط المراكب والطائرات ، وتحدد الجهات و الغايات ، قد يكون سبباً لضياع هذه البواخر والطائرات ، أو انحرافها عن الغاية المقصودة ، و كان من شجاعة علماء الهند و مغامرتهم ، و ثقتهم بالنفس ، و مكانتهم فى الثقافة الاسلامية العربية ، أن تناولوا هذا الموضوع الدقيق للتأليف ، و مؤلفات أهل الهند فى هذا الموضوع هى الفريدة فى هذا الباب و الخطيب فى المحراب ، وعليها الاعتماد منذ ما ألفت فى فهم المصطلحات العلمية واستخدامها ، فألف الشيخ عبد النبى الأحمد نكرى كتابه « جامع العلوم » المشهور بدستور العلماء فى أربع مجلدات ، و ألف الشيخ محمد أعلى التهانوى (و كلاهما من رجال القرن الثانى عشر) كتابه « كشاف اصطلاحات الفنون » و هو كتاب عظيم النفع تلقاه المشتغلون بالعلم فى البلاد بالقبول ، و أثنوا عليه ، لأنه يغنى عن مراجعة آلاف من الصفحات ، و مئات من الكتب ، و قد جاءت فيه عصارة من دراسات المؤلف الواسعة العميقة ، ورحيق معلوماته العذب الصافى ، و هو فى ذلك كنحلة تمتص من الأزهار و الأوراد ، و تصب العسل المصفى .

وتوج هذا المجهود العلمى ، و العناية الدقيقة المخاصة بعلم اللغة ، بمأثرة العلامة السيد مرتضى بن محمد البلكرامى المشهور بالزبيدى ، التى تجلت فى كتابه العظيم « تاج العروس فى شرح القاموس » فى عشر مجلدات كبار ، و لا أعرف ـ فى حدود علمى ـ أن معجماً فى أى لغة من لغات العالم الحية ، عنى به هذه العناية الفائقة و فكر فى شرحه و تنقيحه و الزيادة فيه ، فأصبح موسوعة لغوية ، و قد ولد السيد مرتضى فى الهند فى قرية لا تبعد عن هذا البلد الذى نلتقى فيه بعداً كبيراً ، و قد كانت من توابع هذه المدينة ، وهى مدينة كبار العلماء و الأدباء ، و الشعراء و المؤرخين ، كان فى مقدمتهم مولانا السيد غلام على البلكرامى صاحب السبع السيارة و هى سبعة دواوين له بالعربية ، و صاحب ابتكارات و زيادات فى الشعر

و العروض ، و توليد المعانى ، و التفنن فى الخيال ، وقد شغل كتاب « تاج العروس » سمع الزمان و بصره ، فتنافس فى انتساخه ، و الحصول على نسخة منه كبار سلاطين العصر و ملوك العالم .

ومما يجب أن يسجل فى تاريخ الأدب العربى ، ويتنبه له المتتبعون لمسيرة الأدب العربى ، و تطوراته ، أن الهند الخاضعة لنفوذ الفرس الأدبى والثقافى ، التى كانت تعيش على فتات مائدة العرب فى اللغة و الأدب ، أنجبت فى مختلف عصورها من استطاع أن يسمو على الأسلوب الأدبى التقليدى الذى كان يسيطر على العالم العربى من أقصاه إلى أقصاه . بعد أن ظهر كتاب المقامات للحريرى على المسرح الأدبى — و لا مؤاخذة فان أبا زيد السروجى كان ممثلا فى مسرحيات مختلفة — فكان المثال الوحيد الذى يحتذى فى الانشاء و الكتابة العربية ، و قد كان ذلك كتغير الفصول ، و حلول الربيع و الخريف ، أو كالأوبئة التى تؤثر فى المزاج تأثيراً عاماً ، لا يخلو منها قوى و ضعيف ، و سليم و سقيم ، و قد غشيت العالم العربى ، بل العالم الاسلامى ، سحابة من تقليد أسلوب الحريرى ، ولكن قد ظهرت من أفق الهند البعيد عن مهد اللغة العربية وأساليبها الأصيلة رجال كانوا يبدون كيراعات و حباحب ، فى ليلة مطيرة مظلمة ، كتبوا بقلم عربى أصيل ، وفى أسلوب يجرى مع الطبع ، و هذه الظاهرة الأدبية أو البدعة فى شريعة الأدب العربى المتبعة شرقاً و غرباً ، تحتاج إلى دراسة عميقة .

و كان من هؤلاء الأفذاذ العلامة محمود الجونفورى ـ و هو من مدينة مجاورة فى هذه الولاية الشمالية ـ (م١٠٦٢هـ) فالذى يقرأ كتابه الفرائد شرح الفوائد يتعجب لانشائه المترسل ، و أسلوبه العلمى التحليلى ، و بعده عن السجع والتنميق الذى كان له سحر على أصحاب الصناعة الأدبية ، و الشادين باللغة العربية

و إذا لم تكن الهند المجلية فى مضمار التحرر من قيود السجع و القوافى ، و البديع و الصنائع اللفظية ، و إيثار جانب المعانى على جانب زخرفة الألفاظ ،

و إرسال النفس علـى سجيتها ، و إطلاق عنان القلم ، فقد كان السبق فى ذلك ، و الزعامة العلمية لنابغة العرب ، و إمام فلسفة التاريخ ، العلامة عبـد الرحمن بن خلدون التونسى ، ولمقدمته العظيمة الفريدة التى هزت العقول و الأذواق ، وشقت طريقاً جديداً للانشاء و البحوث العلمية ، أقول إذا لم يقـدر للهند أن تكون هى المجلية فى هذا المضمار ، وقد كان طبيعياً ، لأنها كانت فى آخر حدود العالم الاسلامى و تحت نير الحكم العجمى السياسى و الثقافى ، فقد كانت المصلية فى هذا المضمار ، فقد نبغ فيها الامام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولى الله الدهلوى (م ١١٧٦هـ) فألف كتابه « حجة الله البالغة » و الكتاب — علاوة على مكانتـه فى موضوع أسرار أحكام الشريعة و فلسفة التشريع الاسلامى — مثال فريد لسلامـة الذوق الأدبى ، و نصاعة اللغة ، و قوة العبارة وانسجامها ، و بعدها عن السجع البارد ، و تقليد أسلوب الحريرى ، و هو يعـد بحق النموذج الثانى للنثر الطبعى السلسال ، و التعبير العلمى العامر ، بعد مقدمة ابن خلدون ، و الذى يقرأ فصله « المدنيـة العجمية عند بعثة الرسول ﷺ » فى كتاب « حجة الله البالغة » يحار لرشاقة العبارة و التدفق البيانى ، و سهولة اللغة و عذوبتها .

و قد نبغ بعده علماء كتاب فى الهند ، كانت كتاباتهم فى السير و التراجم ، و البحوث العلمية والتاريخية تختلف عن كتابات معاصريهم فى البلاد العربية الصميمة و مراكز الثقافة العربية ، فى عـذوبة العبارة ، و خفة الروح ، و تنوع المادة ، و الترسل ، و نخص بالذكر منهم العلامـة محسن بن يحى الترهتى صاحب « اليانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبد الغنى » وهو كتاب مشرق الديباجة ، عليه رواء العربية الفصحى ، و رشاقة الأديب القدير ، و علامة الهند الأمير السيـد صدق حسن القنوجى البهوپالى (م١٣٠٧هـ) و المؤرخ الكبير العلامة السيد عبـد الحى الحسنى (م١٣٤١هـ) صاحب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » فى ثمانية مجلدات ، و هنا اسمحوا لألفت نظركم إلى حقيقة تاريخية أدبية ، وأنقل سطوراً من

كلمتى التى ألقيتها فى مهرجان ندوة العلماء الكبير المنعقـد فى ٢٥ ـ ٢٨ شهر شوال عام ١٣٩٥هـ .

قلت :

« من سمات علماء الهند البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الانشائية فى شبه القارة الهندية ، و كانوا من الدعائم القوية السـامقـة التى قام عليها قصر الأدب الرفيع ، و النثر الفنى بعد ثورة ١٨٥٧م ، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة ، لا يزال لها أنصار و أتباع و مقـلدون ، و كان كثير منهم رائد نشاط جديد فى الانشاء و التحرير و النقد و تاريخ الأدب و الشعر ، و لا تزال مؤلفاتهم هى المرجع الأصيل والعمدة فى هذا الموضوع ، و لم يكن فى الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصرى ولغة البلاد ، و لم تكن تلك الفجوة التى وقعت فى بعض البـلاد بين علماء الدين و الشادين بالأدب و الشعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التى جنت على الدين والأدب فى وقت واحد » .

و كانت مؤسسة ندوة العلماء التى تلتقون فى رحابها ، فى مقدمة من أنكرت على هذا الفصام النكد بين الدين والأدب ، و تكوين معسكرين متنافسين ، معسكر العلماء و الدعاة ، و معسكر الأدباء و الكتاب ، فى لغـة البلاد ، و المؤلفين فى آدابها ، و أنكرت على احتكار الأدباء المتزعمين للأدب للغة و الانشاء ، و النقـد و التاريخ ، و قد تجلت هذه الحقيقة و هذا الاستنكار فى عبارة أحد المنتسبين إلى ندوة العلماء ، اسمحو لى أن أنقلها منقولة من الأردية إلى العربيـة والكاتب يتحدث عن رجعية التقدميين من الأدباء ، يقول :

« الأدب الذى كان اجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء ، وكان أحق بأن يتحرر من الجمود والتقليد ، من أى مؤسسة علمية و مدرسة فكرية ، إن الأدب الذى رضع بلبان الجدة و الجراءة و الذكاء و التذوق بالجمال ، ويرتفع أساسه ـ بالتعبير الأدبى ـ على حب الجمال فى كل شىء ، و على الشغف بالأزهار و الأوراد ، فى كل حديقة و روضة ، و فى كل غابة و واحة ، قد وقع ـ مع الأسف ـ فريسة العصبية التقليدية ، وأصبح أسيراً للعادات و الرسوم ، و قلما نجد

الأدباء و النقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود التعريف بالأدب و الانشاء الذى رسمه المؤلف الأول أو المؤرخ للادب القديم ، ويتخطون رسومه التى قررها هو، الأمر الذى أنتج أن كل أديب يترسم خطى الأديبالذى سبقه فى رحلته الأدبية ، دون أن يطمح إلى زيادة أوابتكار ، أوتطوير فى ذخائر النماذج الأدبية ، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين لادب و الكتابة فيقلدهم كل أديب و مؤرخ تقليداً أعمى ، و يجتر آثارهم و أسلوبهم .

و ما أصدق قول شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء . فقال :

« إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم » :

وكانت أول من نادت بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديد ،وغربلتها و نخلها و إثارة دفائنها و كنوزها ، و إبراز محاسنها و بدائعها ، و إن كانت فى غير مظانها ، و عنـــد من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب و القدرة على التعبير ، و أبعـــدهم عن دست الأدباء و الكتاب ، و وضع مناهج جديدة لتعليم اللغة العربية و آدابها ، تعلم الدين و الأدب فى وقت واحد ، و تطبع على السليقة العربية ، و تثير المواهب الفطرية ، و تعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة و مسايرتها لكل عصر و موضوع .

لكل هذه الأسباب ، و لهذه الركيزة الأدبية التاريخية لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للادب الاسلامى ، وتدعو إليها كبارالأساتذة و المعنيين باللغة العربية ، و آدابها ، و التربية الاسلامية و مناهجها ، و قد كانت الاستجابة الكريمة التى لقيها منظمو هذه الندوة ، دليلا على إخلاص الداعين ، وذوق المدعوين الذين قطعوا مسافات بعيدة ، وتحملوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة ، و تداول الآراء و الفكر فى هذا الموضوع الكبير الخطير .

و مرحباً بالقادمين الكرام ، و شكراً للاساتذة العظام .

و الحمد لله أولا و آخراً .